

في اللغة العامية^(١)

للمستاذ عبد الرزاق صبيدة

- ١ -

اللغة العامية هي اللغة التي يتكلمها عامة الناس في بلد من البلاد أو جهة من الجهات يستعملونها للتعبير عن أغراضهم العامة اليومية ويتفاهمون بها فيما بينهم تفاهما سريعا في حديثهم وقضاء مآربهم البسيطة الساذجة .

وهي مختلفة اختلافا قليلا أو كثيرا عما يسمى اصطلاحا لغة الكتابة أو اللغة الفصيحة أو اللغة الأدبية . وذلك الاختلاف أمر طبيعي ، فلهذا الكتابة أو الفصيحة خاصة بالأدباء والمتعلمين من رجال اللغة ، وهي التي تودع بطون الكتب . وهي الدليل على ثقافة صاحبها ومبلغه من العلم ، لهذا يحرص عليها المتعلمون - في كتابتهم على الأقل - وقد يتكافونها تكلفا ، ليتنازوا بهامن غيرهم ، ولتكون فارقا بينهم وبين الجهال الذين لا يعرفون إلا العامية وسيلة للترجمة عما في أنفسهم من أشياء وما يحسون به من محاسن .

ولما كانت العامية لسان الكثرة الغالبة من أبناء اللغة ، وفيهم العالى الثقافة الواسع الأفق ، وفيهم الجاهل المحدود التفكير ؛ ومنهم الساذج السعاجي النظرة ، والمتوسط الذكاء ، والقليل الحاجة إلى الالفاظ لغلة مطالبه ، كانت

(١) يلاحظ أني انتصرت في الأمثلة والشرائح اعتمادا على ذلك القاري وسمة تهاويله وليس من الصعب على الزراء الكرام أن يجدوا هذه الأمثلة المازدة لما أقول من مغلطاتهم الخاصة ، وما صادفوه في حياتهم من نماذج وشرائح ؟

ألفاظها أقل عدداً . وكانت تراكيبها ، والخيال في تشبيهاتها واستعاراتها أقرب إلى البساطة . وأدنى إلى الفطرة .

أما الفصيحة فهي لغة الأدب والعلم . ورجال الأدب والعلم قليلون في كل أمة ، ولسكن حاجتهم إلى الألفاظ والتراكيب للتعبير عن خيالهم الخصب ، وتفكيرهم العميق وأبحاثهم الواسعة الآفاق ، وعلومهم المتعددة الأسماء والأبحاث ، حاجة قوية ، لهذا كانت الفصيحة ، على قلة من يؤثرونها من أبناء اللغة - أوسع ألفاظاً وأعمق نظراً ، وأخصب خيالاً ، وأدق تعبيراً .

والعامية - كالفصيحة - ليست واحدة بين أهل اللغة الواحدة ، خصوصاً إذا هاجرت هذه اللغة من موطن إلى موطن ، وانتشرت بين أجناس متعددة وشاعت في أقاليم متباعدة ، كالعربية التي نشأت في الجزيرة . ثم ارتحلت مع الإسلام إلى العراق وفارس والشام ومصر والسودان والمغرب فطغت على غيرها طغياناً يختلف في قوته ، ولكنه طغيان جرف أمامه ما كان قبلها من لغات . فلم يبق منها إلا آثار قليلة لا قيمة لها . ومع قوة هذه العربية الموقودة بالدين الإسلامي ، فإننا نجد أثرها في العامية في تلك الأصقاع خاضعاً لسلطان البيئة وعوامل الاجتماع ، فهي في مصر غيرها في الشام ، وفي العراق غيرها في الجزيرة العربية نفسها . تبعاً لاختلاف من يخاطب أهل هذه البلاد . وما يرونه في بلادهم من حيوان أو نبات . أو تقنضيه مطالب العيش من إقامة أو ارتحال ، وتبعاً لاختلاف طبيعة الأفراد باختلاف الأقاليم ، مما يؤدي إلى الاختلاف في طريقة النطق وفي كيفية الأداء . وإن اتحدت الألفاظ . وما يؤدي إلى الاختلاف في مأخذ التشبيه ومنايع الحكم والأمثال في عامية هذه الأقاليم .

وليس هذا التباعد ناشئاً من تعدد الأقاليم وحده ، ولكنه موجود في الإقليم الواحد سواء تباعدت أجزاؤه أو تقاربت . فالعامية في بلادنا مثلاً

تختلف من بلد إلى بلد، ومن مديرية إلى مديرية. تختلف في كيفية الإدايمكة وكون
سكان الوجه القبلي « محمد » وأهل القاهرة « محمد » ونطق « خوزانة »
و « خوزانة »، وزغرد، وزغرت، وفي اللفظ المستعمل للبلول، واحد،
فهو سعيد تسمى الشيكلة « صولدي »، والايكندرية تسمى التعريفة قرشابة،
وتسمى الجبلية قفطانا، « والإكحل » في قناهو الجبل، والقوطة في القاهرة
من الطاطم. « والزملت » في الشام هم الرجال
وإذا كانت الفتاة النعمية تشبه « بحدرد حميرة »، وإذا شهبوا شمرها في
في أشعارهم بأنه :

..... يغطي المتن أسود فاجم أثيث كقنور النخلة المتعشك
فإن بعض أهل القاهرة وبخاصة الذين من أصل تركي يشبهونه بأسلاك
الذهب . وليس ذلك بمحب فالبينة التي ينتزع منها التشبيه في أكثر الأحيان
مختلفة والحضارة فيها مختلفة كذلك . ومن هنا رأينا الاختلاف في التشبيه بين
جزيرة العرب في الجاهلية وبين تشبيه المصريين في القرن العشرين .

- ٢ -

وهجرة اللغات أمر طبيعي، واختلاف اللغات العامية التي من أصل
واحد طبيعي كذلك فإذا أمكن أن تتصور لغة ما في بقاع الأرض لا يزيد
أهلها ولا ينقصون في هذه البقعة، ولا يرون جنسا آخر من الناس استطعنا
أن نتصور عاميتهم محدودة، ولغتهم جامدة، كما يقال عن سكان استراليا
الأصليين الذين لا يزيد عاميتهم على عشرات الكلمات .
ولكن الحال تغير هذا في معظم اللغات حتى لغة سكان استراليا الأصليين
بعد احتلال الانجليز بلادهم في القرن الثامن عشر . فالناس قد عرفوا الهجرة
من أقدم المصور، واللغات قد عرفت الهجرة كذلك فنزحت جمع النازحين
الذين ضاقت بهم بلادهم فهجروها، أو اضطرتهم طبيعة الأقاليم ومطالب

الحياة إلى الارتحال رغبة في الغنى ، أو للتجارة ، أو للكشف الجغرافي .
 فإذا استقر هؤلاء النازحون استقرت معهم لغتهم على حال من القوة
 تفاضل حالهم منها ، فإذا كانوا سادة فاتحين كانت لغتهم سيدة مستعملة ، وشاع
 التكثير منها في لغة البلاد كما حدث في الاستعمار الهولندي لأمريكا ، والإنجليزى
 للهند ولأستراليا ، والفرنسى لكندا وبلاد المغرب . وإذا طغت هذه اللغة
 على لغة السكان الأصليين فأبادتها كما حدث في لغة الإنجليز مع سكان أستراليا
 الأصليين ، فإن البيئة الجديدة لا تترك اللغة المهاجرة سليمة من التغيير ، بل
 تؤثر فيها فتدخل ألفاظ جديدة لمسميات جديدة ، وقد تنشأ عامية في هذه
 البلاد للغات التي تمت إلى أصل إنجليزى ، ولكنها لا تمت إلى إقليم بعينه من
 أقاليم الجزر البريطانية في الجسلة ، بسبب اختلاف الأقاليم التي تجمع منها
 هؤلاء النازحون .

وإذا رجعنا إلى عاميتنا في مصر وبخاصة ما يرجع من ألفاظها إلى وهاد
 الجزيرة العربية ونجادهما . وجدناه يرجع إلى أماكن مختلفة في الجزيرة ، ثم
 تكونت لنا منه عامية كان يمكن أن تتوحد لولا ما يعوق ذلك من بعد المسافة
 بين أجزاء البلاد . وما يحتاج إليه في كل جزء ، واختلاف المدلولات نوعاً ما
 مما يؤدي إلى اختلاف الألفاظ . ومن اختلاف الأجناس التي تتصل
 بالعامية في الأجزاء المختلفة من القطر . فالصعيد الأقصى قريب من السودان
 وشمال الدلتا قريب من الشام والترك مثلاً ، وذلك يجعل عامية أهل قنا وأسوان
 قليلة الألفاظ التركية بعكس عامية القاهرة والإسكندرية .

وقد يكون اختلاف العامية ناشئاً من الكسل في النطق أو كثرة دوران
 الكلمات أو الرغبة في الاقتصاد في الألفاظ ، وما الترخيم إلا نوع من الكسل
 وما زال ذلك الترخيم في النداء معروفاً عند بعض المصريين فينادون أمين
 بقولهم « يا أمى » وحسن بقولهم « حسا » وقد يكون في غير النداء ،

فالتّمي، والسّبيّة، والبلاّ الاحمّاء في بني سويّف هو العيش والبيض والبلح
الأحمر في القاهرة.

وقد يكون الاختلاف في نطاق العامية لا في ألفاظها، بل قد يختلف
نطاق الشخص الواحد لكلمة أو عبارة باختلاف الحالات النفسية التي تسيطر
عليه عند النطق فهو في الحزن ذو لهجة تختلف عنه في الفرح، وفي الجدل غير
في الخطابة، والنصيح مثل العاصي في هذا. فالألفاظ واحدة عندما يقول
القائل « ده معقول » ولكن النطق يختلف في نطقها للاستفهام عنه في نطقها
للاخبار. ويظهر هذا الاختلاف في الضغط على بعض الحروف ورفع الصوت
في مكان وخفضه في آخر، وفي مد حرف وخطف آخر.

والثورات أو النهضات الاجتماعية أو الثقافية تؤثر في اللغة العامية فتدخل
فيها ألفاظا جديدة، أو تشيع كلمات كانت غير موجودة أو كانت قليلة الاستعمال
بأن كانت من لغة الخواص مثلا. وترقى ببعض الألفاظ بعد أن كانت
مهينة وهكذا.

وللعادات الاجتماعية أثر في تخصيص بعض الألفاظ، فقد نسمع لفظا
من رجل فلا نسيغه لأنه من لغة الأطفال أو لأنه جدير بالنساء. ولنضرب
لذلك مثلا ألفاظ التحية في بلادنا. فتحية النساء بينهن وحدهن، أو بينهن
وبين الرجال هي: سميّة، أو العواقي، أو مساء الخير، أو تصبحوا على
خير. وتحية المسلمين بينهم هي السلام وحده أو متبوعا بلفظ بما سبق يلقى إلى
فرد من الذين يسلم عليهم: السلام عليكم: سميّة يا فلان. وأذكر أن عهداً
من اليهود كان يجمعنا بكثير من الفتيات، وكنا جماعة من الرجال تؤثر السلام
تحية « حتى إلى النساء. فسرّت هذه التحية منا إليهن حتى أصبحن يتبادلنها
بينهن قبل تبادل القبلات.

وهناك عامية خاصة بأرباب المهنة الواحدة، وهي ما يسمى « السيم » أو

اللغة الرمزية . كقول عمال القهاوى : ع الريحة أو مضبوط .

— ٣ —

وليست عامية القرى واحدة في أوتها وشيوعها واحترامها . فعامية المدن أكثر احتراماً وشيوعاً ، وعامية الريف لا عيب فيها إذا كانت في دائرة من يتفاهمون بها ، فإذا خرج هؤلاء من بلادهم إلى المدن تضاموا وحاولوا أن يكتسبوا ما يخالف ألفاظهم هناك كي لا يكونوا أقل حضارة أوريا . وقد يكون السبب ما في عاميتهم من جفاوة وغلظة وبعد عن مألوف أهل الحضر . على أن من أهل الصعيد من يرى - وهو في القاهرة - أن التنكر للهجته كالتنكر لدينه ، فيأبى أن يهجر « الجلم » ، « الجاموس » ، « الجلة » ، « القلم » ، « القاموس » ، « القلة » .

ويغلب ذلك في الذين يرحلون إلى الحواضر كباراً ، والذين تقل الصلة بينهم وبين أبناء الحواضر الأصليين ، ولا يكون اختلاطهم إلا بأشباههم كعوائف العمال مثلاً .

والذى يجعل عامية المدن أشيع ، هو ما للبدن من احترام في نفوس الناس ، لما يظنونه بأهلها من رقى ورقة إحساس وسمو أذواق بسبب مجاورتهم للحكام واختلاطهم بأخلاق مختلفة من أهل المملكة أو الممالك الأخرى . ولتوافر العيش الرغيد في المدن وما يتبع ذلك من حسن في البناء والأزياء ونظام في الشوارع والطرقات . وما يسمع في حديثهم من دلال ونعومة ورقة .

وهناك عامية لا تختص بمكان وهي عامية المتعلمين . فمؤلاً يختارون ألفاظهم وأساليبهم العامية ، إما من الفصحح المخرف قليلاً ، أو من عامية الحاضرة . ولذلك نراهم يستطيعون التفاهم فيما بينهم وإن بعدت متابعتهم واختلف منشؤهم ، فالموظف من أهل أسوان في ديوان من دواوين القاهرة يفهم زميله القاهري والنياوى ولا يقل التفاهم بينهم إلا إذا انتقل الحديث إلى موضوع إقليمي

يحيد ألفاظه ويفهم أساليبه الأسوانى أو المنيأوى، وقد لا يفهمه القاهرى .
 وإذا كان التعليم قد قرب العامية بين المتعلمين، فالمختبرات الحديثة قد قربت
 العامية كذلك فى القطر الواحد أو الأقطار التى تتكلم لغة واحدة وأغنى بها
 تلك المختبرات التى تنقل الحديث من مكان إلى مكان ويقبل الناس على سماعها
 شئ آخر وراء ألفاظها كأن تكون مسلية مثل السينما والمذياع والاسطوانات
 الغنائية ومجلات الفكاهات أو المجلات السياسية والاجتماعية التى تكتب بلغة
 عامية . والشبان والسيدات أكثر تأثرا بهذا النوع من الشيوخ .
 أما تعليم البنات بوجه خاص فله أثر كبير فى التقريب بين العامية فى الجهات
 المختلفة وفى قربها من الفصحى ، وذلك لأن الأم المتعلمة تؤثر الفصحى
 بطبيعتها أو تؤثر عامية الحضر ، وهى ذات تأثير كبير فى أولادها يقلدونها
 فى حديثها وينقلون عنها ألفاظها وطريقة أدائها . وهى كما قدمنا متأثرة بعلمها
 فتكون لغة أولادها كذلك . والتعليم الإلزامى ذو أثر كبير فى شيوع عامية
 متقاربة فى البلاد المختلفة من القطر ، وفى رقى هذه اللغة كذلك ، إذ أن
 موضوعات هذا التعليم متقاربة وألفاظها موحدة . والأطفال الذين يتلقون
 هذا النوع من التعليم عن أساتذة من جهات مختلفة يكتسبون ألفاظا وتراكيب
 عامة لا تقتصر على مداولات بيتهم .

— ٤ —

ولاشك أن شيوع عامية واحدة فى القطر الواحد أمر ضرورى . وليس
 هناك ما يمنع من وجود عامية إقليمية بجانبها . فوجود لغة عامية واحدة
 يساعد كثيرا على تسهيل عمل المدرسين . فمثلا . أو أكثرهم يجدون من الصعب
 استخدام اللغة الفصحى إنما لعجزهم عنها ، أو لعجز تلاميذهم عن فهمها . ولا بد
 فى هذه العامية أن تكون سهلة واضحة الألفاظ رقيقة المخارج غير نابية عن
 السمع ليكون تأثيرها أقوى . والإفهام بها أتم .

وهناك المصالح المرتبطة بين أهل البلاد على بعد ديارهم خصوصاً بعد أن قربت السيارات والقطر والطيارات مسافة البعد. وأصحاب هذه المصالح مضطرون إلى تبادل الحديث أكثر مما كان في الزمن القديم؛ فلا بد من وجود لغة عامية أشبه بلغة المتعلمين ليستطيع بعضهم أن يفهم وأن يفهم. وإلا كان الاقتصاد على العامية الإقليمية مؤدياً إلى صعوبة قضاء هذه المصالح. فإذا تقدم تاجر من إسنا أو طهطا مثلاً إلى زميل له في الإسكندرية أو القاهرة وحدثه بلغة إسنا وحدها فقد يصعب التفاهم فلا بد لهذا الإسنى من إصلاح عاميته وتقريبها من عامية القاهرة كي يستطيع قضاء مأربه. وإذا جاء تاجر زكاتب من الريف ليشتري عدداً منها من القاهرة وسأل عن المكان الذي يجد هذه «التلايس» - جمع تليسة - فقد يرجع يخفى حنين من القاهرة لا بالزكاتب التي جاء من أجلها.

وفي المسرح يحتاج الممثل إلى عامية ممتازة يعترف بها السامعون. ويخضعون لسلطانها ويؤمنون بمعرفتها: اللهم إذا كان دوره في الرواية يحتاج إلى عامية إقليمية كأن يقوم بدور خادم نوبى أو عامل صعيدى، وهنا لا حرج عليه أن يمثل بلغة واحد من هذين.

ورجال الوعظ ورجال السياسة يحتاجون إلى هذه العامية العالية التي تفهم في أنحاء البلاد. فلا بد للوعاظ بجانب الفصيحة من عامية راقية يستمعون بها على أداء رسالتهم بين المستمعين أينما حلوا وحيثما انتقلوا، ورجال السياسة كذلك يحتاجون إليها حينما يبشرون بمبدأ ينتقلون من أجله في أنحاء البلاد.

— ٥ —

والعامية في بلادنا ذات أصول متعددة، وإن كانت أكثر ألقاظها من العربى الفصحى. فعندنا منها القبط القديم مثل بيعع، ومنها الفارسى كالبالوظه والباشمين ومنها التركى كالشملك والإودة والهمبة. ومنها الفرنسى كالشيزلونج

والشمزت ومنها الإنجليزى مثل الجريب فروت والتكيك ، غير أن العامية الشائعة في القرى وبين الأعراب الضاربين في الصحراء أكثرها من أصل عربي دخله التحريف في النطق أو في قواعد الإعراب

ولهذه العامية الشائعة عندنا بلاغة وفيها حكم وأمثال جديدة بالتخليد .
كقولهم : كشكار دايم ولا علامة مقطوعة . وقولهم : القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود . وقولهم : كل طائر يلوذ بالفه .

ولها قواعد منتظمة فالحاء أو الهاء هي حرف الاستقبال مثل : أناح اكتب ، أو « ها اكتب » وما و « الشين هما حرفا النفي مثل « ما لكش دعوة » « ما عليكش عيب » . وكثيرا ما تخرج ألفاظها عن معناها أو تراكيبها عن الوضع الأصلي لها كالفصيحة فان « اعمل الى يعجبك » قد يكون معناها التهديد . وكذلك « تقدر تزورنى بكره » قد يكون معناها الالتئاس . وأمثال هذا كثير مما لا يخفى على القارى اللبيب .

وبعد فهذه كلمة مختصرة عن اللغة العامية قد تشترك معها فيها اللغة الفصيحة وقد تنطبق على عاميتنا كما تنطبق على عامية الأمم الأخرى . وأرجو أن تكون على قصرها جامعة ، وأن يغفر لى قارئها ما يرى فيها من نقص أو عيب والله ولى التوفيق

عبد الرزاق محمد